قصة قصيرة

رجل عسكري

فخر الدين صديق نارو

أبعد المسدس المصوب نحو رأسه . . استند بمرفقه إلى المائدة التي على يمينه . . قلّب المسدس برهة في يده . . وضعه على المائدة .

ـ لن تقتل نفسك ـ حسناً . . ماذا تفعل ؟ ماذا تريد ؟

لم تبك في حياتك . . رغم كثرة المحن التي تعرضت لها . . هل آن لك أن تبكي ؟

أتترك دموعك تخرج من عينيك ؟ تسيل على وجهك وتسقط على بذلتك العسكرية ؟

عقيد بالجيش . . هه . . لم تدخر وسعاً في سبيل عملك . . درست كل الفرق التي أتيحت لك . . واشتركت في كثير من الدورات العسكرية . . ونلت عدداً من الدبلومات . . أنفقت معظم وقتك في قراءة الكتب العسكرية . . والجري وراء نظريات الحرب الحديثة وتاريخ قادة الحرب العالمية الثانية ومذكّراتهم . . وخبراء العالم العسكريين . . قرأت بازل ليدل هارت . . الجنرال أندريه بوفر . . كلاوزفيتز . . ايزنهاور . . زوكوف . . . مونتغومري . . روميل . . باتون . . عمر برادلي . . ودرو ميدلتون . . نابليون . . لم تمل أبداً من دراسة دنكرك . . ستالينغراد . . نورماندي . . العلمين . . طبرق . . وغيرها من المعارك الحربية .

وحين ذهبت بعثة في باريس . . أمضيت الوقت في اللهث وراء مقابلة ما أمكنك من ضباط الحرب العالمية . . ومناقشة خبراتهم . . وزرت ما استطعت من المعاهد والكليات العسكرية والمصانع الحربية . . بينما زملاؤك يستمعون للمحاضرات التي تلقى عليكم . . ويسجلون بعض ما سمعوا في دفاترهم . . ثم ينطلقون في أنحاء باريس . . الحي اللاتيني . . مونمارتر . . كافيه دولابيه (مقهى السلام) . . الشانزليزيه . . ميدان الكونكورد . . قوس النصر . . كنيسة المادلين . . قصر شايو . . نهر السين . . ميدان الفاندوم . . مطعم مكسيم . . برج إيفل . . وقد يذهب بعضهم إلى متحف اللوفر وحدائق التوليري . وفي المساء يقضون السهرة في المولان روج أو الفولي برجير . . بينما أنت جالس مع احد العسكريين تمضي معه الساعات في مناقشة الاستراتيجيات الحديثة وبحثها . . والمعارك الكبرى . . وتطلب منه تزويدك بأسماء الكتب العسكرية الحديثة وأن يرشح لك أهمها . أهمها .

ولفت الأنظار إليك . . لشدة إنتباهك ومداومتك حضور المحاضرات . . ومناقشاتك مع الأساتذة ومدير المعهد . . الذي سألك يوماً وهو مندهش :

ـ هل أنت حقاً من ذلك البلد ؟

وأكدت له ذلك . . وأن أبويك والأربعة جدود من بلدك . . وإلا لما استطعت الالتحاق بالكلية الحربية . . وحاولت الدفاع عن زملائك لتجعله يغير رأيه ببلدك . . وقلت له :

ـ إنهم لا يمثلون البلد . . وفي كلّ مكان تجد الإنسان الجادّ واللاهي .

وطيّب خاطرك . . قائلاً :

ـ يكفي أن تكون أنت من هناك لتعطي فكرة حسنة .

وزرت معرض باريس الدولي للطيران . . وامضيت به وقتاً طويلاً . . ودهش زملاؤك لاهتمامك بالطيران والبحرية . . رغم أنك بالجيش . . وقلت لهم :

ـ يجب لمن يعدّ نفسه للمناصب الكبرى أو القيادة . . أن يُلمّ بكافة أسلحة الجيش . . وأن يكون مدركاً تماماً لعملها . . خاصة ما يتعلق بتعاونها أثناء الحرب .

وشملت قراءاتك الطيران والبحرية ـ وكثيراً ما قلت . . إن الاقتصاد وعلم النفس مفيد . .

والضابط الناجح يجب أن يلم بأي فرع من فروع العلم المختلفة فضلاً عن استيعابه لتخصصه العسكري . . وإلمامه بباقي فروع الجيش .

وحين عدت لم يصدق اصدقاؤك . . وسألوا عن مباهج باريس . . مدينة النور . . وأجبتهم بأن باريس لها ألف وجه . . وأنك رأيت فقط وجهها العسكري .

ـ هل كنت جاداً أكثر مما يجب ؟

أخذ المسدس من على المائدة . . أمسكه بكلتا يديه . . أنفاسه مضطربة .

تشعر برغبة في البكاء ؟ مضى زمن طويل منذ بكيت آخر مرة . . حتى أهوال الحرب لم تدفع الدموع إلى عينيك . .

وفي بلدك . . حين تذهب للترفيه عن نفسك . . فإنك تلبس وتتأنق . . وتذهب إلى مركز المدينة وتدخل السينما لتشاهد فيلما حربياً . . وتمضي أوقات فراغك في قراءة الكتب والمجلات العسكرية المحلية والعالمية . . وإجادتك التامة للانجليزية والفرنسية . . تسهل لك القراءة . . ووضعت خطوطاً عامة لكتاب عسكري . . تضع فيه أفكاراً عسكرية حديثة ودروساً مستفادة من حروب محلية سابقة .

ـ هل يُنشر الكتاب ؟ من يعلم ؟

وكنت تنفق الوقت الكثير في التفكير . . وتعلم أنه رغم ضخامة عدد كلا الجيش . . والعدد الكبير للقادة . . فإنه لم يكن هناك المفكر العسكري . . بالمعنى العلمي الصحيح . . اللهم إلا ما يعدّ على أصابع اليد الواحدة . . واعتبرت نفسك واحداً منهم . . بذلت كل جهدك لتثقيف نفسك وتأهيلها لهذا العمل البالغ الأهمية . . والذي يتطلب استعداداً ومواصفات خاصة . . ثم دراسات واسعة وتدريبات . . للوصول إلى مرتبة هذا اللقب .

وحين ناقشت رؤساءك الكبار . . في عدد الجيش الكبير . . وإنه في رأيك يجب أن ينخفض إلى الثلث . . والاحتفاظ بذوي المستوى العلمي والثقافي والصحي . . والذين لديهم استعداد خاص للجيش . . مع الابقاء على الميزانية المخصصة نفسها . . مما يحقق رفع مستوى الجنود والضباط وإمكانية قيامهم بتدريبات عالية المستوى والكفاءة . . . حيث يكون الاهتمام مركزاً . . وكثيراً ما قلت وكررت :

ـ الحروب لا تكسب بالاعداد الضخمة . . فلسنا في عصر هولاكو . . أو جنكيز خان . . ولا تكسب بالاستعراضات الضخمة في الاحتفالات . . لكن بالسلاح الحديث . . وبالمقاتل المدرب تدريباً عالياً . . والمستند إلى حضارة متقدمة لبلده أساسها العلم الحديث والمدنية .

وتسبب اقتراحك في تكدر العلاقات بينك وبين الرؤساء . . إضافة إلى خوف بعضهم على مناصبهم منك . . واعتبروا طموحك خطراً . . رغم أن الطموح فيما تفعله من اهتمام زائد بعملك . . ربما الدافع الثالث أو الرابع .

وجاء الأمر الذي زاد العلاقات سوءاً . . ونسفها تماماً . . حين عُرض عليك القيام ببعض الأعمال . . وهي عمليات ومؤامرات رخيصة . . رأيت أنها أعمال سياسية لا علاقة لها بعملك العسكري . . رفضت بحسم :

ـ أنا رجل عسكري . . لا أعمل بالسياسة .

وتركت للزمن . . فلم يفعل بك شيئاً . . واستمررت تسير على المنوال نفسه بينما تسرب عدد كبير من السياسيين في الجيش . . وأصبحوا يتعاونون فيما بينهم . . لما فيه خيرهم . . ويستفيدون من الامتيازات . . ويمنعونها عمن يأبى الانصياع لهم .

ولما دأبت على ترديد قولك :

ـ أنا رجل عسكري . . لا دخل لي بالسياسة .

الحوا عليك قائلين :

ـ السياسة والعسكرية توأمان . . أو وجهان لعملة واحدة .

فقلت :

ـ أعمل ما اؤمن به . . لا ما تؤمنون به .

وأضفت . . إن السياسة خربت جيوش دولٍ عديدة . . وفي دولة عريقة مثل انجلترا . . لا يتدخل الجيش مطلقاً في السياسة . . مما يحقق الفائدة للجيش والدولة معاً .

وتغيرت المعاملة معك . . وتلاها بعض المضايقات لك . . ثم تحولت إلى استفزازات . . وتغيرت كلمة ممتاز . . في التقارير عنك . . إلى متوسط . . وربما أصبحت محل شك . . للنكاية بك . . وانتهى الأمر بإحالتك للاستيداع . . كانت صدمة قاسية . . بذلت جهوداً جبارة للتغلب عليها . . ومحاولة تقليل آثارها . . حتى لا تتحطم .

وعرضت عليك وظيفة بإحدى الشركات بمرتب يقارب مرتبك . . رفضتها مكتفياً بمعاش الاستيداع . ومرة ثانية تركت للزمن . . فلم تلِن عزيمتك . . لكن بدأ الزمن يؤثر فيك . . وأصبحت تعاني من حزن عام . . قال عنه صديق مخلص . . إنه يشبه حزن الشهداء والمصلحين والأولياء . . وكثيراً ما شاهدت زملاءك الذين تركوا الجيش إلى مناصب كبرى بالشركات المدنية . . تراهم في سيارات مرسيدس وبيجو وشفروليه . . وفي الصيف يقيمون بأفخم الفنادق والفيلات . . يعيشون حياة ذات مستوى رفيع . . يترددون على أفخر الشواطىء ويملكون بها كبائن البحر الخاصة . . بينما تنزل أنت في فندق متوسط . . وتقضي النهار على الشاطىء تقرأ . . وتكتفي في المساء بنزهة على شاطىء البحر . . متجنباً الجلوس في أحد الأماكن . . أو تناول العشاء في مطعم كبير . . مما لا تتحمله ميزانيتك المتواضعة .

ـ هل يكفي معاش الاستيداع كل شيء ؟

وتشعر ببعض الأسى . . وتطيب خاطرك :

ـ أنا رجل عسكري . . لا دخل لي بالسياسة .

ـ هل قتل نفسك الآن عمل عسكري أم سياسي ؟

ومرت الأيام . . ولم تتراجع . . وظللت على رفضك الدخول في المحاور والتكتلات . . ولوّح لك بمنصب ملحق عسكري . . ورئيس مجلس إدارة لشركة كبرى . . ورفضت . . لأنك لا ترى بديلاً عن عملك العسكري . . الذي كرست له حياتك . . ورغم قوة الإغراء . . فأنت ترى نفسك خارج العمل العسكري . . سمكة خارج الماء . . تشعر بحنين جارف ورغبة قوية في العودة إلى مهنتك العسكرية .

أمسك المسدس بيده اليمنى . . حركه في يده كأنه يختبر ثقله .

ـ ألا تضع حداً لهذه الآلام ؟ إن الشروع في الانتحار يعتبر جريمة بالنسبة إلى العسكريين ، الضابط يعاقب بالطرد أو جزاء أقل ، والجندي بالحبس أو جزاء أقل ، لكنك على الاستيداع الآن . . ثم إنه سيكون انتحاراً تاماً . . وليس شروعاً فيه .

طويت جوانحك على الألم كثيراً . . حاولت قدر المستطاع أن تكبح حزنك . . أن تدفنه في الأعماق . . حتى لا يطفو ويظهر . . وكم من مرة . . ألقيت نظرة في الطريق العام . . على إنسان يعمل . . ربما كواء في محله . . فتشعر بالغيظ لأنه يعمل . . وربما يطوف بخيالك أن تعمل مثله . . فالعمل هو حياتك . . خاصة العمل العسكري .

ربّاك والدك الضابط تربية عسكرية . . وكنت جادّاً حتى قبل دخولك الكلية الحربية . . وكم من مرة في الصبا والشباب اختلفت مع اصدقائك بسبب تقيّدك الصارم بالمواعيد . . وبشكل حادّ . . وحين فكرت أن تكون المواعيد محدّدة بدقة مثل الخامسة وخمس دقائق . . أطلق بعضهم أنك مُعقَّد . . وأنت لا تتصور كيف يمكن لإنسان يحترم نفسه أو غيره . . أن يعطي موعداً من الخامسة حتى السادسة ؟

رفع يده بالمسدّس قليلاً .

ـ هل لديك موعد في ألسماء ؟ لن يمكنك التخلي عن الموعد ؟

أصدقاؤك المحوا إليك كثيراً . . ناصحين لك أن تقبل ما عرض عليك . . وجوابك يأتيهم :

ـ أرفض لسببين كلاهما كاف بمفرده . . هذه المؤامرات الرخيصة والتكتلات والمحاور السياسية . . ضارّة بالبلد ولا تفيد إلا أصحابها . . وبعض الدول الأجنبية التي أشك أن بعضهم على علاقة بها . . والسبب الثاني . . أني رجل عسكري لا شأن لي بالسياسة .

كم تكره السياسة . . حاولت دائماً تجنّبها . . لكنها اقتحمت حياتك . . فرضت نفسها على نظامك . . أفسدته ودمّرت كل شيء .

ـ هل لحياتك أي معنى الآن ؟ لست مقتنعاً بها .

نظر إلى البذلة العسكرية في شيء من الأسى . . نهض واقفاً . . ظهرت صورته كاملة على المرآة الكبيرة المواجهة .

ضغطة على الزناد وينتهي كل شيء .

ـ هل تهاب الموت ؟ لا . . ولكن من أجل ماذا تنهيَ حياتك ؟ مرّ بك كثير من المحن . . كانت كفيلة بتحطيم غيرك . . لكنك صمدت لها .

ترقرقت الدموع في عينيه . . بدا مظهره غريباً في المرآة . . شعر بغضب سريع . . مركز ومفاجىء . . كره الدموع في عينيه . . ضغط على الزناد . . دوّى الرصاص عالياً . . تحطمت المرآة .

ـ رغم أنه لا يوجد أي أمل . . فربما يكون هناك أمل .

ألقى المسدس بعيداً . . وتهالك على المقعد .